مقدمة

معروف أن الموروثات الشعبية تعبر عن تجربة، وقيم، ومعتقدات الشعب خلال مسيرته الحياتية، والمثل الشعبي أحد مكونات هذا التراث، وأحد منابع الحكمة الشعبية (كما يعتقد قائلها).

لا أنكر أن المثل الشعبي قد فتح نافذة للمعرفة عندي، فوجدتني أقرأ ما يقع بين يدي من كتب حوله، وقد وجدت فيما قرأت نقصا في الأمثال الواردة فيها، أو لنقل أن كثيرا من الأمثال التي كنت أحفظها لم تكن موجودة فيها، إضافة إلى أن بعضها كان يحتوي على أقوال، أو حكم، أو أحاديث دينية، أو آيات من القرآن أو أسفار من الإنجيل.

أما دوافعي لهذا العمل فهي:

أولا: أنني بعد قراءتي كتاب غسان كنفاني عن الأمثال الايجابية في الحياة الفلسطينية، وجدت أن أعمم التجربة حتى يعرف القارئ جميع الأمثال.

ثانيا: أنني عام ١٩٨١م كنت عريفا لمهرجان الأدب الفلسطيني الأول والذي عقد في مدرسة المطران في القدس، وفي بداية حديثي تطرقت لموضوع ارتداء مضيفات شركة الطيران الإسرائيلي (العال) للثوب الفلسطيني المطرز، كما تطرقت لموضوع سرقة أكلاتنا الشعبية مثل الحمص والفول والفلافل والادعاء بأنها أكلات تراثية إسرائيلية، وفوجئت خلال الحديث برجل (يتخنصر) أمامي ويحدجني بنظرة تحد ووعيد، وعلمت بعدها أن هذا الرجل هو ضابط المخابرات الإسرائيلي في المنطقة.

ثالثا: لحبيّ لوالدتي التي كانت تمطرني بالأمثال كلما بدر مني تصرف جديد، ولاستهزاء كبار السن بتصرفات الآخرين من خلال الأمثال، كل هذه الأمور،

دفعتني لجمعها وتدوينها في كتاب.

رابعا: كنت في زيارة لقريتنا كفر سابا التي دمرها الإسرائيليون عام ١٩٤٨م، زرت مقاما كان يقدسه أهل القرية قبل النكبة وكان يسمى مقام النبي يامين (وهو اسم عربي قديم)، وهو مقام مبني خلال فترة الحكم العثماني لبلادنا ويؤكد ذلك حجر منقوش في أعلى المقام، وفوجئت يومها بامرأة عجوز داخله فسألتها عن سر وجودها فأخبرتني بأنها يهودية مهاجرة من الجزائر وهي تعمل على رعاية هذا المكان الذي يحوي رفات جنود من الجيش الإسرائيلي في حرب الاستقلال، فصعقت وأشرت لها لشواهد القبور التي تشير إلى أنها رفات عربية، لكنها لم تكترث.

أما عن منهجي في جمع المثل الشعبي الفلسطيني فرأيت أن أرتبه أبجديا، وبما يتلافى النقص الذي أدركته فيما سبق لي أن قرأت من الكتب. ولأن الناس هم المصدر الرئيس للأمثال، وخاصة كبار السن، فقد توجهت إليهم، أخبرهم عن هدفي وأشحن ذاكرتهم بقول بعض الأمثال، ثم أطلب منهم ما يحفظون، وأدون ما أسمع، وأطلب تفسير بعض الكلمات، ومتى يقال المثل، ثم أرتب ما جمعت، كل مثل على بطاقة خاصة به، مرتبا حسب الحرف الأبجدي الذي تبدأ به أول كلمة في المثل، ولذلك ليس غريبا أن نجد مثلين يتحدثان عن نفس الموضوع، لكن مبتدأ كل مثل مختلف عن الآخر، مثال: "ايد الحر ميزانه"، "عين الحر ميزانه".

المهم أنني جمعت ما يربو عن أربعة آلاف جملة يقولها الناس كأمثال، ثم جاء دور الفرز والاختيار، فكان علي أن أقرأ تعريفات المثل، وفي النهاية وضعت تعريفا للمثل الشعبي الفلسطيني يتلخص في كونه جملة موجزة، محكمة البناء، بليغة المعنى، وواسعة الانتشار بين فئات الشعب، وتنبع من تجربة حياتية فلسطينية جمعية وليس فردية، وهكذا فرزت الأقوال والحكم والآيات القرآنية والأحاديث النبوية سواء الإسلامية أو المسيحية، عن الأمثال الشعبية، بمعنى أنني

استبعدت أكثر من النصف.

مسألة أخرى استعنت بها في عملية الفرز، فالمعلوم أن هناك تشابها كثيرا في بعض الأمثلة العربية مع الفلسطينية. جميعنا نعلم أن فلسطين قلب الأمة العربية، كما أن مدينة القدس الشريف هي قبلة المسلمين الأولى، ولأن بلادنا متعددة المناخات والديانات فقد كان يلجأ إليها الكثير من العرب والمسلمين سواء كانوا حجاجا أو عمالا أو باحثين عن الراحة والاستجمام، ولأن كثيرا منهم استقروا في البلاد وتزاوجوا مع سكانها الأصليين ابتداء من الحملات الصليبية، فقد تداخلت الأمثال، فلذلك حاولت واعتمادا على قراءاتي في فرز المثل الشعبي الفلسطيني الناتج عن تجربة فلسطينية جمعية من خلال صراعه من أجل البقاء والحرية والاستقلال.

ولأن مسألة الحرية والخلاص نسبية لذلك لم يقتصر جمعي للأمثال الايجابية فقط بل جمعت الأمثال السلبية أيضا، لأن التراث الشعبي لا يشترط به أن يكون نظرية تربوية بقدر ما هو انعكاس لواقع موجود، ونظرة المجموع لهذا الواقع نسبية أيضا، فهي إما أن تحاول تغييره للأفضل، أو تبقيه على ما هو عليه، أو هي حيادية تؤثر السلامة الشخصية، وتعبر عن المزاج الخاص للناس في فترات متلاحقة، فما يلزمنا هذه الأيام نستعمله وما نراه لا يناسبنا نتركه للأجيال القادمة قد تستفيد منه في حياتها.

خلال جمعي للأمثال، أحببت أن اجمعها من مصدرها القريب، وهم كبار السن حتى أضمن استمرارية تناقل المثل، ولذلك عزمت على التنقل بين ربوع الوطن والالتقاء مع مصادري المباشرين، وقد استغرقت هذه العملية، الجمع والفرز، مدة تقارب ثلاث سنوات.

وبعد

أعتقد أن هذا الكتاب استوفى معظم الأمثال الشعبية الفلسطينية الناجمة عن

التجربة الجمعية الحياتية، وليس كلها فالمجتمع مليء بالأمثال الشعبية التي تحتاج إلى باحثين آخرين يكملون المسيرة، كما كنت آمل بمشروعي الثاني الاستزادة في البحث وجمع قصة كل مثل.

مؤخرا أصدر الدكتور الأديب محمد بكر البوجي في غزة كتابا حول التراث أسماه (التراث الشعبي الفلسطيني والمواجهة) وفيه يقول: (إن سرقة التراث الفلسطيني ليس جديدا على بني إسرائيل، بل لقد سرقوا وحدة الوزن الفلسطينية القديمة – الشقلة – قبل ثلاثة آلاف سنة، وأطلقوا عليها اسم العملة لديهم – الشيقل – سنة ١٩٨٠م.)

كما يقول: (كذلك سرقوا شكل الدرع الذي كان يحمله القائد الفلسطيني القديم – جالوت – وهو على شكل سداسي، ونسبوه إلى الملك – داوود – .)

وإزاء هذا الوضع أوصي بضرورة إقامة مؤسسة مختصة بالموروث الشعبي الفلسطيني لحفظه من الضياع أو السرقة.

أتمنى أن أكون قد أنجزت شيئا للأجيال القادمة لتعرف مدى أهمية التراث الشعبي لما يحتويه من تجارب تفيدنا في حياتنا الراهنة، ويمدنا بذخيرة حيّة في مواجهة تعقيدات الحياة بالكلمة المفعمة بالتجربة والحكمة.